دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلّد 34، (ملحق)، 2007

التفات العدد
في نماذج من القرآن الكريم

*نزيه محمد إعلاوي وأيمن محمد الأحمد**

ملخـص

حاولت هذه الدراسة أن تلقي بعض الضوء على نوع من أنواع أسلوب الالتفات في القرآن الكريم،وهو التفات العدد الذي لم يحظ باهتمام كبير من الباحثين. وبدأت هذه الدراسة برصد عدد من الآراء التي جعلت التفات العدد نوعا من أنواع الالتفات. وانتقلت بعد ذلك إلى النظر فيما جعله عدد من الباحثين التفات عدد في القرآن الكريم، وبينت أن كثيرا منه ليس من باب التفات العدد، لأن شروط الالتفات لا تتحقق فيه. ثم نظرت الدراسة في بعض أمثلة التفات العدد في القرآن الكريم، وحاولت تبين أبرز الدلالات التي يحملها هذا الأسلوب، فظهر أن كثيرا من مواضع التفات العدد في القرآن جاءت في سياق الحديث عن الذات الإلهية وقد جاءت على صورتين فقط: من المفرد إلى الجمع، ومن الجمع إلى المفرد، وكان أبرز ما يحمله أسلوب التفات العدد من دلالات في هذا السياق تعظيم الله تعالى، من خلال (الجمع)، وتأكيد وحدانيته من خلال (الإفراد). وجاء التفات العدد في سياقات أخرى حاملا دلالات أبرزها التعميم والتخصيص والتوحيد.

الكلمات الدالة: القرآن، الالتفات، العدد، المفرد، المثنى، الجمع.

المقدمـة

مر مصطلح الالتفات البلاغي بتغيرات كثيرة، وظهر عند البلاغيين على صور متعددة(1). ويرتضي كثير من دارسي البلاغة المعاصرين أن يعرفوا الالتفات، وعينهم على أسلافهم، بأنه الانتقال في الكلام من صيغة إلى أخرى، أو من أسلوب إلى آخر على خلاف ما يقتضيه الظاهر،(2). ويضيق مفهوم الالتفات عند عدد من العلماء والدارسين ليقتصر على الانتقال في الضمائر(3)، ويتسع قليلا عند آخرين ليشمل الانتقال في الأفعال إلى جانب الضمائر(4)، ويتسع أكثر عند غيرهم، ليشمل الانتقال في العدد أيضاً(5)، ويمتد سعة ليشمل التذكير والتأنيث (6)، والتعريف والتنكير(7)، ويجعله بعضهم يتسع ليشمل" كلّ تحول أو انكسار في نسق التعبير لا يتغير به جوهر المعنى أو البنية العميقة له"(8).

ويعد ابن وهب من أوائل من جعلوا الانتقال في العدد من باب الالتفات وسماه الصرف، يقول: "وأما الصرف فإنهم يصرفون القول من المخاطب إلى الغائب، ومن الواحد إلى الجماعة"(9). وجعل ابن الأثير في " الجامع الكبير" الالتفات في ثمانية أقسام، منها الرجوع من خطاب التثنية إلى خطاب الجمع، ومن خطاب الجمع إلى خطاب الواحد(10). ورأى الزركشي أن "مما يقرب من الالتفات الانتقال من خطاب الواحد والاثنين والجمع إلى خطاب آخر وهو ستة أقسام"(11)، وقد أشار السبكي إلى أن هناك من جعل الانتقال في العدد من صور الالتفات، قال: "ومنهم من يجعل الالتفات نقل الكلام من حالة إلى أخرى مطلقا، وجعل منه ابن النفيس في "طريق الفصاحة" التعبير عن الماضي بالمضارع وعكسه، وجعل غيره منه الانتقال من خطاب الواحد أو الاثنين أو الجمع لغيره، وهو أقرب شيء للالتفات المشهور لمشابهته له في الانتقال من أحد أساليب ثلاثة لآخر"(12)، وفي موطن آخر من "عروس الأفراح" يقول السبكي معلقا على كلام القزويني في "الإيضاح": "أهمل المصنف أموراً كثيرة من إتيان الكلام على خلاف مقتضى الظاهر، كلّ منها يصلح أن يكون من أبواب المعاني إذا اعتبرت فيه نكتة لطيفة، منه انتقال الكلام من خطاب الواحد أو الاثنين أو الجمع لخطاب الآخر، وهذا القسم قريب من الالتفات، لأن فيه الانتقال من أحد أساليب ثلاثة إلى آخر"(13)، ونلمح في تعليقي السبكي شيئاً من القبول لعد الانتقال في العدد من باب الالتفات. كذلك رأى السيوطي أن نقل الكلام من خطاب الواحد إلى الاثنين أو الجمع لخطاب الآخر قريب من الالتفات أو شبيه به(14).

وكان أبو عبيدة قد تنبه مبكرا إلى هذا الأسلوب، وإن لم

---

* قسم العلوم الأساسية، كلية الأمير عبد الله بن غازي للعلوم وتكنولوجيا المعلومات، جامعة البلقاء التطبيقية، السلط؛ وقسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة إربد الأهلية، إربد. تاريخ استلام البحث 2006/3/26، وتاريخ قبوله 2006/10/8.

© 2007 عمادة البحث العلمي/ الجامعة الأردنية. جميع الحقوق محفوظة.

يجعل له اسما، وإنما تحدث عنه في سياق سنن العرب في كلامها، قال: "ومن مجاز ما جاء لفظه لفظ الواحد ووقع معنى الواحد على الجميع قال: (يخرجكم طفلا) في موضع أطفالا (غافر 67) ومن مجاز ما جاء من لفظ خبر الجميع على لفظ الواحد قال: (والملائكة بعد ذلك ظهير) في موضع ظهراء (التحريم 4) ومن مجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الشاهد ثم تركت وحولت مخاطبته هذه إلى مخاطبة الغائب قال: (حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم) أي بكم (يونس 22) ومن مجاز ما جاء خبره عن غائب ثم خوطب الشاهد قال: (ثم ذهب إلى أهله يتمطى. أولى لك فأولى) (القيامة 33-34)(15). وتنبه له كذلك ابن قتيبة في "تأويل مشكل القرآن"(16). وذكر ابن فارس ذلك في "الصاحبي" في سياق حديثه عن سنن العرب في أبواب منها: باب الواحد يراد به الجمع، وباب الجمع يراد به واحد واثنان، وباب مخاطبة الواحد بلفظ الجميع(17).

وقد جعل عدد من دارسي البلاغة المحدثين الانتقال في العدد صورة رئيسة من صور الالتفات(18)،وقد بذل حسن طبل جهدا محمودا في محاولة تتبع مواضع الالتفات في القرآن، ومنها مواضع التفات العدد، وحاول طبل وآخرون أن يتبينوا شيئاً من القيمة الفنية والجمالية لالتفات العدد في نماذج قليلة من القرآن الكريم(19).

ويجد الناظر في المواضع التي أشار إليها أولئك الدارسون أن عد عدد منها في باب الالتفات أمر فيه نظر، لذلك يهدف هذا البحث أولاً إلى محاولة تحديد مفهوم التفات العدد في ضوء المفهوم العام للالتفات الذي أشار إليه العلماء، لينظر بعد ذلك فيما يمكن أن يدخل في هذا الباب، وفيما يخرج منه.

ويهدف البحث أيضا إلى إلقاء نظرة على نماذج مختلفة من التفات العدد في القرآن الكريم، محاولا تبين أبرز ما تحمله من دلالات.

يرى جمهور البلاغيين أنه حتى يكون هناك التفات لا بد أن يتوافر شرطان: الأول أن يكون هناك انتقال من صيغة إلى أخرى تخالف ما يقتضيه الظاهر، والثاني أن يكون المنتقل إليه هو ذات المنتقل عنه(20). ولعلّ الشرط الثاني توضيح لما أشار إليه الشرط الأول من وجوب أن تكون الصيغة المنتقل إليها على خلاف ما يقتضيه الظاهر، فظاهر السياق يقتضي أن يبقى المتكلم على الصيغة التي بها بدأ الكلام ما دام يتحدث عن الأمر نفسه. وتبدو أهمية هذين الشرطين واضحة في ما ينتج عنهما من نكتة بلاغية جعلت أسلوب الالتفات واحداً من أبرز الأساليب البلاغية إثارة للفكر الباحث وراء سر العدول من صيغة إلى صيغة مع أن المعدول إليه هو نفسه المعدول عنه، ودون هذين الشرطين يفقد هذا العدول، في كثير من الأحيان، ما فيه من نكتة لطيفة نظن أنها تقف وراء التفات العلماء إليه حتى جعلوه من شجاعة العربية(21). وهذا لا يعني أنه لا توجد نكت بلاغية في بعض أنواع العدول المخالفة لمقتضى الظاهر من غير الالتفات، إلا أن تلك النكت ليست من باب النكت البلاغية للالتفات. وبذلك فإن الشرطين المشار إليهما يجعلان الالتفات متميزا عن باقي أنواع الخروج عن مقتضى الظاهر، وبهما يصبح الالتفات صورة خاصة من صور العدول من صيغة إلى أخرى.

في ضوء ما سبق ننظر أولا فيما جاء من التفات العدد في القرآن الكريم، ونراجع عددا من الأمثلة التي وردت عند عدد من الباحثين، ونخرج منها ما لا يتوافر فيه الشرطان المذكوران. ولما كان كتاب حسن طبل يعد،فيما نعلم، المرجع الأبرز من المراجع الحديثة في موضوع الالتفات في القرآن الكريم، ويبدو أثره واضحا فيما كتبه عدد من الباحثين في هذا الموضوع(22)، فقد اعتنى هذا البحث عناية خاصة بمراجعة الأمثلة التي أوردها حسن طبل وعلّق على عدد منها لتقديم صورة دالّة، فالمقام هنا لا يتسع للتعليق على جميع ما أورده الباحث(23).

يرى الباحثان أن كثيراً من الأمثلة التي يجعلها بعض الباحثين في باب الالتفات في القرآن الكريم تفتقر إلى الشرط الأول، فالانتقال فيها من صيغة إلى أخرى ليس فيه ما يخالف مقتضى الظاهر، وذلك لأن الصيغة المنتقل إليها صيغة مألوفة اختيرت من بين صيغ أخرى مألوفة، وهنا تصبح النكتة البلاغية ليس في مخالفة ما يتوقعه السامع كما هي الحال في الالتفات، وإنما في سبب اختيار هذه الصيغة دون غيرها، ومثال ذلك ما أورده بعض الباحثين(24) من مثل قوله تعالى: " ثُم نُخْرِجكُم طِفْلًا" (الحج/5)، فهذه المواضع وأشباهها(25) يستوي فيها المذكر والمؤنث والجمع(26)، وما دام الأمر كذلك، فإن اختيار صيغة المفرد هنا ليس فيه ما لا يقتضيه الظاهر، لأن هذه الصيغة مما يشيع عند مستخدمي اللغة، وهنا يمكن أن يسأل عن سبب اختيار هذه الصيغة دون غيرها، وهو اختيار لا بد أنه حقق غرضا لا تحققه الصيغ الأخرى، وقد تكون الدلالة التي تحملها الصيغ التي تدل على المفرد والجمع معا هي وحدة الداخلين في الوصف(27)، لكن هذا شيء والالتفات شيء آخر، فالالتفات عدول عن صيغة إلى صيغة أخرى لا تستخدم للدلالة على الصيغة الأولى، وليس اختيارا بين صيغتين يمكن أن تستخدم كلتاهما للدلالة ذاتها.

ومما يقع في هذا الباب، ويحسن إخراجه من باب التفات العدد وقد أدخله بعض الباحثين فيه(28) آيات تضمنت ألفاظا صورتها صورة المفرد ومعناها يدل على الجمع من مثل: فئة، وأمة، وخصم، وقرية، وطائفة(29). فمثل هذه الآيات اللفظ المفرد فيها المعبر عنه أولا منظور إلى معناه في الجمع المعبر عنه نفسه تاليا. وهي إن كانت مما يقع في حد الالتفات من هذا الجانب إلا أنها من جهة الشرط الآخر تخالف حد الالتفات من حيث عدم مخالفتها لما يقتضيه الظاهر، ولا ينكر أن التعبير عن الشيء نفسه مرة على صورة الإفراد وأخرى بصيغة الجمع فيه نكتة بلاغية ظاهرة، غير أن هذه النكتة ليست التفات عدد.

ويشير ابن المنير إلى أن من شروط الالتفات أن يكون المتكلم واحداً: "الالتفات إنما يكون في كلام المتكلم الواحد يصرف كلامه على وجوه شتى"(30). ويبدو هذا الشرط ضرورياً لتحقق المخالفة لما يقتضيه الظاهر، لذلك نرى أنه لا وجه لما رآه بعض الباحثين(31) من وجود التفات في آيات فيها رواية لقول من مثل قوله تعالى: " وورِثَ سليمان داوود وقالَ يا أيها الناس علمنَا منطقَ الطيرِ وأُوتينَا من كُلِّ شيء " (النمل /16)، ففي هذه الآية يوجد انتقال من المفرد إلى الجمع، لكن المفرد (قال) من كلام الراوي، والجمع (علمنا) من كلام سليمان، وليس في هذا الانتقال ما يمكن أن يخالف ما يقتضيه الظاهر.

ونظن أن ما ذكر يصح أيضاً حين يكون الراوي هو نفسه صاحب القول، وذلك من مثل قوله تعالى: " قالَ رب إِني أَخَافُ أن يكذبونِ. ويضيقُ صدري ولَا ينْطَلقُ لِساني فَأرسلْ إِلى هارون. ولهم عليّ ذَنْب فَأخَافُ أن يقْتُلُون. قالَ كلا فَاذْهبا بِآياتنَا إِنا معكُم مستَمعون" (الشعراء /12-15)، وقوله تعالى: " قالَ سنَشُد عضدك بِأخيك ونَجعلُ لَكُما سلْطَانًا" (القصص/35)، ففي مثل هذه الحال يكون المتكلم واحداً، لكن الكلام كان في سياقين، سياق رواية الخبر، وسياق الخبر، ولعل في ذلك ما يبطل مخالفة الكلام لما يقتضيه الظاهر.

ولا يتحقق الشرط الثاني الذي يوجب أن يكون المنتقل إليه هو نفسه المنتقل عنه، في كثير مما عده بعض الباحثين(32) من باب التفات العدد،من ذلك قوله تعالى: " وأَوحينَا إِلَى موسى وأَخيه أَن تَبوءا لِقَومكُما بِمصر بيوتًا واجعلُوا بيوتَكُم قبلَةً وأَقيموا الصلاةَ وبشرِ الْمؤْمنين " (يونس /87) فغير خاف أن التثنية والإفراد والجمع في ضمائر هذه الآية يعود كل ضمير منها على غير ما يعود عليه الضمير الآخر، فالتثنية لموسى وهارون، والجمع لبني إسرائيل والإفراد لموسى(33)، وهذا ليس التفاتاً، فالمنتقل إليه ليس هو نفس المنتقل عنه.

ومثل ذلك قوله تعالى: "قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفتَنَا عما وجدنَا علَيه آباءنَا وتَكُون لَكُما الْكبرِياء في الأَرضِ وما نَحن لَكُما بِمؤْمنين" (يونس/78). فقد رأى بعض الباحثين أن في هذه الآية التفاتا من المفرد إلى المثنى(34)، ولا نرى وجهاً لوجود الالتفات هنا، فضمير المفرد يعود على موسى عليه السلام، وضمير المثنى يعود على موسى وهارون.

ومما يشبه ذلك(35) قوله تعالى: " وقَالَتْ الْيهود يد الله مغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيديهِم ولُعنُوا بِما قَالُوا بلْ يداه مبسوطَتَانِ ينفقُ كَيفَ يشَاء "(المائدة/ 64)، ونظن أن مثل هذا لا يقع في باب الالتفات، ففي هذه الآية نجد انتقالا من المفرد إلى المثنى، لكن المثنى لم يأت معبراً عن المفرد نفسه حتى نقول إن فيه التفاتاً، فاليد في الآية تعبر عن مفرد، واليدان تعبران عن مثنى، فيدا الله المبسوطتان ليستا اليد المغلولة التي نسبتها يهود إليه، وجعل ما في الآية من اختلاف العدد في الموقعين التفاتا فيه فساد غير خاف للمعنى.

وشبيه بما سبق ما ذكره حسن طبل، وأشار إلى أن فيه التفاتاً(36)، وهو قوله تعالى:"وجعلْنَا ابن مريم وأُمه آيةً" (المؤمنون/ 50). ولا يمكن عد الانتقال من المثنى للمفرد هنا التفاتاً، فالمراد هنا أن ابن مريم مع أمه آية واحدة، ولو قال: (آيتين)، لكان المعنى أن كلّ واحد منهما آية، وهذا معنى مختلف. ويقود هذا الأمر إلى القول إنه حتى يكون هناك التفات يجب أن لا يؤدي ذلك إلى معنى مغاير أو مختلف عن المعنى لو لم يكن هناك التفات، فالالتفات عدول من صيغة لأخرى لأن الصيغة الثانية تضيف دلالات لا يمكن أن تعبر عنها الصيغة المتوقعة، لكنها لا تقدم معنى مغايراً لتلك الصيغة.

ويلاحظ أن عددا من الأمثلة التي يجعلها بعض الباحثين في باب التفات العدد يمكن أن يكون المنتقل إليه فيها غير المنتقل عنه، ونرى أن الالتفات لا يتحقق إلا حين يكون من الجلي المتفق عليه أن المنتقل عنه هو نفسه المنتقل إليه، أما حين يمكن رد المنتقل إليه إلى غير المنتقل عنه فلا وجه للقول بوجود التفات، من ذلك ما أشار إليه بعض الباحثين(37) من وجود التفات من المفرد إلى الجمع في قوله تعالى:" ولَقَد ضربنَا لِلناسِ في هذَا الْقُرآنِ من كُلِّ مثَلٍ ولَئِن جِئْتَهم بِآية لَيقُولَن الذين كَفَروا إِن أَنْتُم إِلا مبطلُون"(الروم/ 58)، ونظن أن ليس في هذه الآية التفات فـ(مبطلون) يقصد بها كما يقول أهل التفسير النبي، صلى الله عليه وسلم، وأصحابه(38)، وبذلك فإنه لم يعبر هنا بالجمع عن المفرد حتى يكون هناك التفات.

ومثل الآية السابقة قوله تعالى: "ياأَيها النبي إِذَا طَلَّقْتُم النساء فَطَلِّقُوهن لِعدتهن وأَحصوا الْعدةَ واتقُوا الله ربكُم " (الطلاق / 1)، فقد رأى بعض الباحثين(39) أن في الآية التفاتاً من المفرد إلى الجمع، مع أنه يمكن رد الجمع إلى النبي والمسلمين(40)، وبذلك لا يكون المنتقل إليه هو نفسه المنتقل عنه.

ومثل ذلك أيضاً ما عده بعض الباحثين التفاتاً (41) في قوله تعالى في سورة يس" لا الشمس ينبغي لَها أَن تُدرِك الْقَمر ولَا اللَّيلُ سابِقُ النهارِ وكُلٌّ في فَلَك يسبحون" (يس/ 40)، ويلاحظ أن ضمير الجمع في(يسبحون) يمكن أن يعود على الشمس وعلى الليل والنهار الواردين في سياق الآية نفسها، أو يمكن أن تكون تعقيباً يشمل كل ما يسبح في فلك(42)، فالمنتقل إليه ليس هو نفس المنتقل عنه.

ومما يمكن إخراجه من باب الالتفات في هذا المجال ما ذهب إليه بعض الباحثين(43) الذين رأوا انتقالا من الجمع إلى المفرد في قوله تعالى:

" والذين إِذَا أَنفَقُوا لَم يسرِفُوا ولَم يقْتُروا وكَان بين ذَلِك قَواما" (الفرقان/67)، فلعل من الواضح أن اسم كان هنا لا يعود على الذين وإنما يقدر بـ(أمرهم، أو حالهم، أو إنفاقهم...)(44)، وبذلك لا يكون في الآية التفات.

ويبدو للناظر أن عددا مما أورده بعض الباحثين من شواهد(45) في باب التفات العدد في القرآن، لا ينطبق عليه شرطا الالتفات المذكوران، من مثل قوله تعالى:" خَتَم الله علَى قُلُوبِهم وعلَى سمعهِم وعلَى أَبصارِهم غشَاوةٌ ولَهم عذَاب عظيم" (البقرة /7)، فصحيح أن هناك انتقالا من الجمع (قلوبهم) إلى المفرد (سمعهم)، ومن المفرد(سمعهم) إلى الجمع (أبصارهم)، لكن هذا المفرد لا يعبر عن الجمع، فالمفرد(السمع) شيء مختلف عن الجمع(القلوب، والأبصار)، وليس هناك ما يؤكد أن هذا الانتقال فيه مخالفة لما يتوقعه السامع، وأن السامع كان يتوقع أن يقول أسماعهم وليس سمعهم، وقد أشار عدد من العلماء إلى نكتة بلاغية في إفراد السمع وجمع القلوب والأبصار في هذه الآية وغيرها، لكنهم لم يجعلوا ذلك التفاتاً (46)؛ ومما يسوغ إخراج ذلك من باب الالتفات أنه في كل موضع اقترن فيه السمع في القرآن الكريم بالأبصار(47)، جاء السمع موحدا، وهذا يخرجه من باب النكتة البلاغية الخاصة إلى الأسلوب الخطابي المتداول.

ومما يشبه السمع والأبصار، الظلمات والنور، إذ جاءت الظلمات في عدد من الآيات القرآنية مجموعة وجاء النور مفردا،من مثل قوله تعالى: " وجعلَ الظُّلُمات والنور" (الأنعام/ 1)، وقوله تعالى: " ذَهب الله بِنُورِهم وتَركَهم في ظُلُمات لَا يبصرون " (البقرة/ 17)، وقوله تعالى: " ويخْرِجهم من الظُّلُمات إِلَى النورِ بِإِذْنه " (المائدة/ 16)(48).

في ضوء ما سبق، واستنادا إلى ضوابط التفات العدد التي قدمت، ننظر الآن في ما يمكن أن يعد التفات عدد في القرآن الكريم، ولعلّ أول ما يلفت الناظر أن كثيرا من أمثلة التفات العدد هي تلك التي تتعلق بالذات الإلهية، وقد وردت على صورتين من صور الالتفات الست(49)، وهما: الانتقال من المفرد إلى الجمع، والانتقال من الجمع إلى المفرد.

ولعل أبرز الدلالات التي تتركز حولها أمثلة الالتفات القرآنية المتعلقة بالذات الإلهية هي وحدانية الله، سبحانه وتعالى، وعظمته، والقرب منه، أو البعد عنه، والقوة والشدة أحيانا، وقد يجتمع عدد من هذه الدلالات في النص الواحد، فلو نظرنا - على سبيل المثال - في قوله تعالى:" أَفَحسب الذين كَفَروا أَن يتخذُوا عبادي من دوني أَولِياء إِنا أَعتَدنَا جهنم لِلْكَافرِين نُزلا" (الكهف 102)، يمكن أن نرى في الإفراد (عبادي من دوني) تعبيراً عن وحدانية الله، ثم يأتي الجمع (إنـّـا اعتدنا) مؤكداً عظمة الذات الإلهية وما يصدر عنها من أفعال بعد أن أزال شبهة الشرك حين أفرد. وبذلك استطاع الانتقال من المفرد إلى الجمع أن يحمل دلالة "عظم ما أعده الله من عقاب للكافرين" ويحافظ في الوقت نفسه على تأكيد وحدانية الله تعالى. ويمكن أيضاً أن نرى أن استخدام ضمير المفرد في (عبادي) قد عبر عن قرب الله من عباده المؤمنين، وأبعد الكافرين عنه حين استخدام ضمير الجمع (إنـّـا أعتدنا)، وهكذا يبدو الانتقال من الإفراد إلى الجمع (اعتدنا) انتقالا من القرب من الله تعالى إلى البعد عنه.

وقد يكون قريبا من ذلك قوله تعالى: "يا عبادي الذين آمنُوا إِن أَرضي واسعةٌ فَإِياي فَاعبدون.كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْموت ثُم إِلَينَا تُرجعون" (العنكبوت 56-57)، فالعبادة بالإفراد تخصيص وتقريب ونفي للشرك، والرجوع يوم القيامة بالجمع فيه ما فيه من التعظيم والتعميم.

ويمكن أن نرى ما سبق في قوله تعالى:" ومن أَعرض عن ذكْرِي فَإِن لَه معيشَةً ضنكًا ونَحشُره يوم الْقيامة أَعمى" (طه 124)؛ إذ يبدو أن استخدام ضمير المفرد في (ذكري) جاء تأكيدا لوحدانية الله تعالى، وتعبيرا عما خسره المعرضون من القرب منه. أما استخدام ضمير الجمع في (نحشره) بعد الإفراد، فأفاد تعظيم الذات الإلهية وما يقع منها من العذاب بعد التأكيد على الوحدانية، وعبر كذلك عن بعد الكافرين عن الله تعالى.

وقد يكون من هذا الباب قوله تعالى: " سأَصرِفُ عن آياتي الذين يتَكَبرون في الأَرضِ بِغَيرِ الْحق وإِن يروا كُلَّ آية

لا يؤْمِنُواْ بِها وإِن يرواْ سبِيلَ الرشْدِ لاَ يتخذُوه سبِيلاً وإِن يرواْ سبِيلَ الْغَي يتخذُوه سبِيلاً ذَلِك بِأَنهم كَذَّبواْ بِآياتِنَا وكَانُواْ عنْها غَافِلِين " (الأعراف 146)، إذ يبدو لنا أن الانتقال إلى الجمع قد حمل دلالة تعظيم الذات الإلهية ليعظم ما اقترفه المتكبرون بتكذيبهم بآيات الله. أما استخدام الإفراد في(آياتي) وما يدلّ عليه الإفراد من القرب، فيشير إلى عظم ما خسره الذين صرفوا عن القرب من الله تعالى.

ولا يعني ما سبق أن الإفراد يحمل دلالة القرب والجمع يحمل دلالة التعظيم دائماً، إذ يبدو الانتقال من المفرد إلى الجمع في قوله تعالى:" فَذَرني ومن يكَذِّب بِهذَا الْحدِيث سنَستَدرِجهم من حيثُ لَا يعلَمون. وأُملي لَهم إِن كَيدي متين" (القلم44-45) لافتا ومثيرا للدهشة، فذرني التي تحمل دلالات القوة والعنف صيغت بالمفرد، أما الاستدراج الذي لا يحمل دلالة القوة المباشرة صيغ بالجمع، ويبدو لنا أن الإفراد في(ذرني) حمل دلالة أقوى وأكثر انسجاما للتعبير عن هول انفراد الذات الإلهية بالمكذبين، وهي الدلالة نفسها التي تحملها العودة إلى الإفراد في (أملي)، ففي الإفراد تعبير عن تدخل الله المباشر بهذا الأمر وليس من خلال أي من جنوده، وفي ذلك تعظيم لذنب المكذبين.

أما قوله تعالى: "يا عباد لَا خَوفٌ علَيكُم الْيوم ولَا أَنتُم تَحزنُون. الذين آمنُوا بِآياتنَا وكَانُوا مسلمين"(الزخرف 68-69)؛ فيفيد الإفراد هنا القرب الذي ينسجم مع الأمن، أما الجمع في (آياتنا) فيفيد تعظيم آيات الله.

ويأتي الالتفات من المفرد إلى الجمع في بعض الآيات المبدوءة بالقسم، ومن أمثلته قوله تعالى:" فَلَا أُقْسم بِرب الْمشَارِقِ والْمغَارِبِ إِنا لَقَادرون علَى أَن نبدلَ خَيرا منْهم وما نَحن بِمسبوقين" (المعارج /40). وقوله تعالى: "لَا أُقْسم بِيومِ الْقيامة، ولَا أُقْسم بِالنَّفْسِ اللوامة، أَيحسب الْإِنسان أَلَّن نَجمع عظَامه" (القيامة /1-3). وقوله تعالى: "لَا أُقْسم بِهذَا الْبلَد، وأَنتَ حلٌّ بِهذَا الْبلَد، ووالِد وما ولَد، لَقَد خَلَقْنَا الْإِنسان في كَبد"(البلد/ 1-4).

ونظن أن الإفراد في القسم جاء في مثل هذه المواضع لأن الذات الإلهية أرادت إظهار شدة تأكيد ما تقسم عليه، فالإفراد يحمل هنا دلالة أقوى لأنه يؤكد على انفراد الذات الإلهية بالقسم ووحدانيتها، وبعد ذلك يأتي الجمع فيحمل دلالة تعظيم أفعال الله تعالى.

ومن أبرز المواطن التي نجد فيها انتقالا من المفرد إلى الجمع في سياق الحديث عن قدرة الله تعالى آيات تتضمن حديثا عن إنزال المطر، وإخراج النبت، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى:" أَلَم تَر أَن الله أَنزلَ من السماء ماء فَأَخْرجنَا بِه ثَمرات مخْتَلفًا أَلْوانُها "(فاطر/27). وقوله تعالى: " وهو الذي أَنزلَ من السماء ماء فَأَخْرجنَا بِه نَباتَ كُلِّ شَيء فَأَخْرجنَا منْه خَضرا نخْرِج منْه حبا متَراكبا "(الأنعام/99). وقوله تعالى:" الذي جعلَ لَكُم الْأَرض مهدا وسلَك لَكُم فيها سبلًا وأَنزلَ من السماء ماء فَأَخْرجنَا بِه أَزواجا من نبات شَتى " (طه/ 53). وقوله تعالى: " وأَنزلَ لَكُم من السماء ماء فَأَنبتْنَا بِه حدائِقَ ذَاتَ بهجة ما كَان لَكُم أَن تُنبِتُوا شَجرها أَإِلَه مع الله بلْ هم قَوم يعدلُون " (النمل/ 60).

إذ يلاحظ أن ذكر إنزال الماء من السماء في القرآن الكريم يأتي بضمير المفرد، في حين يأتي(الإخراج) و(الإنبات) بضمير الجمع.ويحمل الإفراد، فيما نظن، دفعا لأي شبهة من ارتباط نزول الماء بغير الله سبحانه وتعالى، واختصاصه به(50). وبعد تأكيد ذلك يأتي الجمع فيحمل تعظيما للخالق وفعل الخلق، فإنبات النبات وإخراجه من الأرض شاهد من الشواهد العظيمة المباشرة على القدرة العلوية.

ومن صور التفات العدد في القرآن الكريم ما نجده في آيات يستخدم فيها الجمع في الحديث عن أفعال الله تعالى تعظيما لها، ثم تنتقل إلى الإفراد حين يصل الأمر إلى الحديث عن وحدانية الله تعالى وعدم الشرك به. ومن مثل ذلك قوله تعالى: " وما أَرسلْنَا من قَبلك من رسولٍ إِلَّا نُوحي إِلَيه أَنه لَا إِلَه إِلَّا أَنَا فَاعبدونِ" (الأنبياء/ 25).

فالجمع في الإرسال والإيحاء يحمل دلائل عظمة المرسل والموحي، وعظمة الفعل نفسه لصدوره عن العظمة المطلقة، أما الإفراد (لا إله إلا أنا) فجاء لأن المعنى اقتضاه فالحديث عن وحدانية الله تعالى.

وشبيه بذلك قوله تعالى: " وإِذْ بوأْنَا لِإِبراهيم مكَان الْبيت أَن لَّا تُشْرِك بِي شَيئًا وطَهر بيتي لِلطَّائِفين والْقَائِمين والركَّعِ السجود" (الحج/ 26).

فالجمع في قوله تعالى (بوأنا) يحمل دلالة تعظيم الفعل، وما يدل عليه ذلك من قداسة المكان، وكرامة النبي،ولكن حين وصل الحديث إلى وحدانية الله تعالى وعدم الشرك به جاء الإفراد.

وقد يأتي الانتقال إلى المفرد حاملا دلالة القرب، من ذلك ما نجده في قوله تعالى: " إِذْ تَمشي أُخْتُك فَتَقُولُ هلْ أَدلُّكُم علَى من يكْفُلُه فَرجعنَاك إِلَى أُمك كَي تَقَر عينُها ولَا تَحزن وقَتَلْتَ نَفْسا فَنَجينَاك من الْغَم وفَتَنَّاك فُتُونًا فَلَبِثْتَ سنين في أَهلِ مدين ثُم جِئْتَ علَى قَدرٍ يا موسى واصطَنَعتُك لِنَفْسي " (طه/ 40- 41).

إذ تبدو دلائل عظمة القدرة الإلهية بارزة في ضمير الجمع لإنجاء موسى عليه السلام من الغم بعد قتله نفسا من

قوم فرعون، أما إخلاص موسى من أن يشارك الله فيه أحد، فعلاقة فردية مباشرة بين موسى وربه، جلّى ضمير المفرد عظمتها وخصوصيتها، ففي العلاقة المباشرة الخاصة بين الله العظيم الجليل وواحد من مخلوقيه من التعظيم والتكريم ما فيه.

ومما يمكن أن يحمل دلالة القرب وخصوصية العلاقة بين العبد وربه قوله تعالى: " ووصينَا الْإنسان بِوالِديه حملتْه أُمه وهنًا علَى وهنٍ وفصالُه في عامينِ أَن اشكُر لِي ولِوالِديك إِلَي الْمصير"(لقمان/ 14).

فاستخدام ضمير الجمع في الكلام على وصية الله للإنسان بوالديه فيه دلالة على عظم الموصي والوصية، وعموم الوصية، وتبقى بعد ذلك الاستجابة وتبعاتها أمرا فرديا بين العبد وربه في علاقة مباشرة، لذلك يأتي الضمير في التعقيب على الوصية بضمير المفرد لخصوصية الفعل وتعبيره عن القرب بين الله وعبده.

ومن لطائف الأمثلة في هذا المجال قوله تعالى:

"فَأوحينَا إِلَيه أَن اصنَعِ الْفُلْك بِأَعيننَا ووحينَا فَإِذَا جاء أَمرنَا وفَار التنور فَاسلُك فيها من كُلٍّ زوجينِ اثْنَينِ وأَهلَك إِلَّا من سبقَ علَيه الْقَولُ منْهم ولَا تُخَاطبني في الذين ظَلَموا إِنهم مغْرقُون"(المؤمنون 27).

فالجمع في قوله تعالى (أمرنا) يفيد بيان عظمة الأمر، وعظمة صاحبه، وهول ما سيقع بقوم نوح من العقوبة والهلاك. وأما حين خاطب نوحا انتقل إلى الإفراد (ولا تخاطبني) ويبدو جمال الإفراد هنا في أن الله تعالى أراد، وهو يرفض أمرا سيخاطبه فيه نبيه، أن يظهر أن رفضه لا يعني أنه لا يكرم نبيه، وإنما هو أمر يتصل بإرادة الله التي لا راد لها، لذلك استخدم الإفراد للدلالة على قرب نبيه منه، رغم رفض ما سيطلبه منه.

ويأتي الانتقال إلى المفرد ليحمل دلالة القوة والشدة، ومن أمثلته قوله تعالى:

" كُلُوا من طَيبات ما رزقْنَاكُم ولَا تَطْغَوا فيه فَيحلَّ علَيكُم غَضبِي ومن يحلِلْ علَيه غَضبِي فَقَد هوى" (طه 81)، فالجمع في الفعل (رزقناكم) يحمل دلالة عظمة الرازق وشمول رزقه الخلق أجمعين، أما الإفراد في (غضبي) فيحمل دلالة العنف والقوة والمباشرة في إيقاع العقوبة دون وسائط مما يجعله أعظم هولا في نفوس الطاغين، وأقوى لهم ردعا.

وجاء التفات العدد في القرآن الكريم في سياقات أخرى غير سياق الحديث عن الذات الإلهية، وحمل الالتفات في تلك السياقات دلالات متنوعة، لعل من أبرزها: التعميم، والتخصيص، والتوحيد.

أما التعميم والتخصيص فمن أمثلته قوله تعالى: " بلَى من أَسلَم وجهه لِلَّه وهو محسن فَلَه أَجره عند ربه ولَا خَوفٌ علَيهِم ولَا هم يحزنُون" (البقرة 112)، فقد أريد إظهار فردية تلقي الأجر، ذلك أن الأجر متفاوت، ويخشى أن تضيع الحقوق لو أعطيت بصورة جماعية فلا يصل إلى كل ذي حق حقه. إن إسلام الوجه والإحسان فعل فردي متفاوت جاء الأجر المستحق عليه بصيغة المفرد لتفاوته كل حسب درجته ومرتبته. أما الأمن وعدم الحزن فيستحقه كل من نال الأجر دون النظر إلى درجة إحسانه ومرتبته(51).

وشبيه بذلك قوله تعالى: " ومن أَراد الْآخرةَ وسعى لَها سعيها وهو مؤْمن فَأُولَئِك كَان سعيهم مشْكُورا " (الإسراء 19)، فالسعي فعل فردي متفاوت بين المؤمنين، وجميع من سعى سيلقى شكراً.

ويمكن أن يعد من هذا الباب قوله تعالى:

" ومن يؤْمن بِالله ويعملْ صالِحا يدخلْه جنات تَجرِي من تَحتها الْأَنْهار خَالِدين فيها أَبدا قَد أَحسن الله لَه رِزقًا " (الطلاق 11)، وقوله تعالى: " من أَعرض عنْه فَإِنه يحملُ يوم الْقيامة وِزرا خَالِدين فيه وساء لَهم يوم الْقيامة حملًا " (طه 100 – 101)، وقوله تعالى: " ومن يعصِ الله ورسولَه فَإِن لَه نَار جهنم خَالِدين فيها أَبدا " (الجن 23). فالإيمان والإعراض والعصيان أعمال فردية يتفاوت فيها الناس، أما الخلود في الجنة أو النار فهو عام لجميع من يدخلهما.

ومن هذا الباب أيضا آيات تحدثت عن آدم وزوجه، فبدأت بالمثنى وانتهت بالجمع، من مثل قوله تعالى: " قَالَ اهبِطَا منْها جميعا بعضُكُم لِبعضٍ عدو فَإِما يأْتينَّكُم مني هدى فَمنِ اتبع هداي فَلَا يضلُّ ولَا يشْقَى " (طه / 122). وقوله تعالى: " فَأَزلَّهما الشيطَان عنْها فَأَخْرجهما مما كَانَا فيه وقُلْنَا اهبِطُواْ بعضُكُم لِبعضٍ عدو ولَكُم في الأَرضِ مستَقَر ومتَاع إِلَى حينٍ " (البقرة/ 36). وقوله تعالى: " قَالَا ربنَا ظَلَمنَا أَنفُسنَا وإِن لَم تَغْفر لَنَا وتَرحمنَا لَنَكُونَن من الْخَاسرِين. قَالَ اهبِطُواْ بعضُكُم لِبعضٍ عدو ولَكُم في الأَرضِ مستَقَر ومتَاع إِلَى حينٍ" (الأعراف/ 23-24).

وهذا الالتفات يحمل دلالة الانتقال من فعل خاص وقع من آدم وزوجه إلى تعميم نتائجه على جميع الجنس البشري، لأنه - كما يقول الزمخشري-: " لما كانا أصل الإنس ومتشعبهم جعلا كأنهما الإنس كلهم "(52).

ومما يمكن أن يصنف في هذا الباب قوله تعالى:" وإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسان منَّا رحمةً فَرِح بِها وإِن تُصبهم سيئَةٌ بِما قَدمتْ أَيديهِم فَإِن الْإِنسان كَفُور" (الشورى/ 48). يظهر سياق الآيات السابقة لهذه الآية أن هذه الآية جاءت تعقيبا على موقف

المعرضين عن الإيمان بالرسول، فأراد أولا أن يرجع ذلك إلى طبيعة الإنسان بصورة عامة، لكنه لما أراد أن يظهر أن التعقيب متصل بموقف هؤلاء المعرضين وليس ابتداء سياق جديد أتى الالتفات ليعبر عن انطباق الحالة الخاصة بهؤلاء على عموم حال الإنسان وأكد ذلك بالعودة مرة أخرى إلى صيغة العموم.

أما التوحيد- ويقصد به توحد المتعدد ظاهرا في الحكم والدلالة- فمن أمثلته قوله تعالى:" يحلفُون بِاللّه لكُم لِيرضوكُم واللّه ورسولُه أَحق أَن يرضوه إِن كَانُواْ مؤْمنين " (التوبة/ 62)، فالالتفات من المثنى إلى المفرد هنا عبر عن توحد الرضاءين كما ذهب عدد من العلماء والدارسين(53).

ومن ذلك قوله تعالى: " إِنما كان قَولَ الْمؤْمنين إِذَا دعوا إِلَى الله ورسولِه لِيحكُم بينَهم أَن يقُولُوا سمعنَا وأَطَعنَا وأُولَئِك هم الْمفْلحون " (النور/ 51)، فحكم الله ورسوله حكم واحد(54).

ونرى أن منه أيضاً قوله تعالى في قصة موسى وهارون: " "فَأْتيا فرعون فَقُولَا إِنا رسولُ رب الْعالَمين (الشعراء/ 16)، فإفراد الرسول جاء دالاً على أن الرسالة التي يحملها موسى وهارون إنما هي رسالة واحدة(55). أما قوله تعالى في سورة طه: " فَأْتياه فَقُولَا إِنا رسولَا ربك فَأَرسلْ معنَا بني إِسرائِيلَ ولَا تُعذبهم قَد جِئْنَاك بِآية من ربك والسلَام علَى من اتبع الْهدى" (طه/ 45-47)، فنميل إلى ما ذهب إليه حسن طبل(56) من أن التثنية هنا جاءت موافقة لما بدا من خوف الاثنين (موسى وهارون)، فالتأكيد على أنهما رسولان يمنحهما حماية من بطش فرعون، لكن التثنية هنا قد يفهم منها أن لكل منهما رسالة مختلفة، فهما رسولان، فجاءت آية الشعراء لتزيل أي لبس في أنهما يحملان رسالة واحدة، وأن التثنية في طه جاءت لغرض بعث الطمأنينة في نفسيهما، لكنّ رسالتهما واحدة.

وقد يكون منه أيضاً قوله تعالى " فَقُلْنَا يا آدم إِن هذَا عدو لَك ولِزوجِك فَلَا يخْرِجنكُما من الْجنة فَتَشْقَى " (طه/ 117)، لكن الغريب أن بعض الباحثين قد رأى في الآية التفاتاً مع أنه جعل الشقاء خاصا بآدم(57)، وهي على هذا التفسير ليس فيها التفات لأن المنتقل إليه ليس هو المنتقل عنه نفسه، ولو كان في الآية التفات فإن الضمير في تشقى يقصد به آدم وزوجه معا ويكون التعبير عنهما بالمفرد لإظهار توحدهما في الشقاء على عكس ما يذهب إليه القائلون بالالتفات في هذه الآية.

ومن بدائع أمثلة الالتفات في القرآن ما جاء في قوله تعالى: " واضرِب لَهم مثَلًا رجلَينِ جعلْنَا لِأَحدهما جنَّتَينِ من أَعنَابٍ وحفَفْنَاهما بِنَخْلٍ وجعلْنَا بينَهما زرعا. كلْتَا الْجنَّتَينِ آتَتْ أُكُلَها ولَم تَظْلم منْه شَيئًا وفَجرنَا خلَالَهما نَهرا، وكَان لَه ثَمر فَقَالَ لِصاحبِه وهو يحاوِره أَنَا أَكْثَر منك مالًا وأَعز نَفَرا، ودخَلَ جنَّتَه وهو ظَالِم لِنَفْسه قَالَ ما أَظُن أَن تَبِيد هذه أَبدا" (الكهف/ 33-35). فإذا كانت الدلالة التي يحملها التوحيد في الآيات السابقة تتمثل في التعبير عن توحد المتعدد، فإن التوحيد في هذه الآية هو الأصل، فيما نقدر، فالآيات تتحدث عن تلك الجنة التي وهبها الله لأحد المتحاورين، لكنها بدأت بالتثنية لما يحمله ذلك من مفارقة، فالذي حاز الجنتين كان واجبا عليه الشكر، ومن لم يحز جنة كان من الطبيعي أن يحسد الأول ويساوره إحساس بعدم تحقق العدل، فلماذا لا يكون له جنة ولصاحبه جنة، لكن ما حدث أن الأول كفر نعمة الله، والثاني لم يزده ما رآه إلا إيمانا واحتسابا. فالالتفات هو الذي أظهر المفارقة، فحين عبر عن الجنتين بصورة المفرد دفع المتلقي إلى التساؤل عن دلالة التثنية في أول الآيات.

خاتمة

وبعد، فقد نخلص من كل ما سبق إلى أن كثيرا مما جعله عدد من الباحثين من باب التفات العدد ليس منه، فشروط الالتفات لا تتحقق فيه، وأن أكثر مواضع التفات العدد في القرآن جاءت في سياق الحديث عن الذات الإلهية، وكانت في صورتين: من المفرد إلى الجمع، ومن الجمع إلى المفرد. وحمل ذلك دلالات أبرزها: تعظيم الله تعالى من خلال (الجمع)، وتأكيد وحدانيته من خلال (الإفراد)، ومنها إظهار القرب من الله تعالى أو البعد عنه. وجاء أسلوب التفات العدد في سياقات أخرى حاملا دلالات متعددة، أبرزها: تعميم الخاص من خلال الانتقال من الإفراد أو التثنية إلى الجمع، والتعبير عن الوحدة بالرغم من التعدد؛ وذلك من خلال الانتقال من المثنى أو الجمع إلى الإفراد.

© 2007 عمادة البحث العلمي / الجامعة الأردنية. جميع الحقوق محفوظة.

الهوامـش

(1) انظر الجهد الكبير الذي بذله أحمد مطلوب في تتبعه للمصطلح، والمادة الوفيرة التي حصل عليها. أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية، ج1، ص 294 وما بعدها. وانظر تتبع حسن طبل لتطور مفهوم الالتفات، وما تعرض له مصطلح الالتفات من تأرجح واختلاف في كتابه "أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية"، ص 4 وما بعدها.

(2) انظر على سبيل المثال: حفني محمد شرف، التصوير البياني، ص 428. ومحمد عبد المطلب، البلاغة العربية، قراءة أخرى، ص 392. وتوفيق الفيل، بلاغة التراكيب (دراسة في علم المعاني)، ص 280.

(3) انظر على سبيل المثال:ابن البناء المراكشي، الروض المريع في صناعة البديع، ص98. والمفتي، خلاصة المعاني، ص 180. ومن المحدثين: أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ص 239. وأحمد مصطفى المراغي، علوم البلاغة، ص 128. وعلي البدري، بحوث المطابقة لمقتضى الحال، ص197. وعبد الستار حسين زموط، من سمات التراكيب، ص 225. ومحمد بركات أبو علي ورفاقه، علم البلاغة، ص 360. ويوسف أبو العدوس، البلاغة والأسلوبية، ص 77. ومحمود أحمد حسن المراغي، علم البديع، 104، 106. ويشير عدد من البلاغيين إلى أن هذا رأي الجمهور، انظر على سبيل المثال: الشيخ أحمد الدمنهوري، حلية اللب المصون بشرح الجوهر المكنون لسيدي عبد الرحمن الأخضري على هامش كتاب جلال الدين السيوطي: شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان، ص 74. وحفني شرف، التصوير البياني، ص 429. وعلي البدري، بحوث المطابقة لمقتضى الحال، ص 195. وهاشم محمد هاشم محمود، الالتفات في حاشية الشهاب الخفاجي، ص 47.

(4) لعلّ أول من فعل ذلك ابن الأثير، انظر: ابن الأثير، المثل السائر، ص 165،169. وانظر كتابه الجامع الكبير في صناعة المنظوم والمنثور، ص 101. وقد تبع ابن الأثير عدد من العلماء، منهم: يحيى بن حمزة العلوي(ت749هـ) الطراز، ج2ص132.وبدر الدين الزركشي (ت794هـ)،البرهان في علوم القرآن، ج3ص335،334. وتبعهم عدد من المحدثين، منهم: عبد العزيز عتيق، (علم المعاني، البيان، البديع)، ص 560 وما بعدها. وتوفيق الفيل، بلاغة التراكيب، ص 294. وراجي الأسمر، علوم البلاغة، ص 169.

(5) انظر على سبيل المثال: عبده عبد العزيز قليقلة، البلاغة الاصطلاحية، ص 344.

(6) ابن عربشاه عصام الدين الحنفي، شرح تلخيص مفتاح العلوم، ص 415.

(7) انظر: أسامة البحيري، تحولات البنية في البلاغة العربية، ص293.

(8) حسن طبل، أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، ص 63. وانظر أيضاً: إبراهيم محمود علان، البديع في القرآن، أنواعه ووظائفه، ص 238.

(9) ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، ج1ص152.

(10) ابن الأثير، ضياء الدين، الجامع الكبير، ص 101.

(11) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج3 ص335،334. وانظر: السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج3 ص 325.

(12) السبكي، عروس الأفراح، ج1 ص464.

(13) المرجع نفسه، ج1 ص491.

(14) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج3 ص 258. وانظر أيضاً: شرح عقود الجمان، ص 30.

(15) أبو عبيدة، مجاز القرآن، ج1ص11،9.

(16) ابن قتيبة الدينوري، تأويل مشكل القرآن، ص15، 16.

(17) ابن فارس، الصاحبي في فقه اللغة، ص316، 317.

(18) انظر على سبيل المثال: محمد عبد المطلب، البلاغة العربية، ص 394. وحسن طبل، أسلوب الالتفات، ص 109، 129. وأسامة البحيري، تحولات البنية في البلاغة العربية، ص293، و299. وإبراهيم محمد علان، البديع في القرآن، ص238.

(19) انظر: حسن طبل، أسلوب الالتفات، ص 109، 129. وص244،233. وأسامة البحيري، تحولات البنية، ص331 وما بعدها. وإبراهيم علان، البديع في القرآن، ص244 وما بعدها.

(20) انظر: إبراهيم حسن داود،أسرار الالتفات في ضوء الذكر الحكيم، ص 3، وص5. وأسامة البحيري، تحولات البنية، ص 300. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن عدداً من البلاغيين لم يوافق على هذين الشرطين، فالسكاكي مثلاً لا يوجب أن يكون هناك انتقال بين صيغتين. انظر: السكاكي، مفتاح العلوم، ص112.

(21) ابن جني، الخصائص، ج2ص419،411.

(22) انظر على سبيل المثال:أسامة البحيري، تحولات البنية ص 293 وما بعدها، وإبراهيم علاّن، البديع في القرآن ص233 وما بعدها.

(23) يلاحظ المتتبع للأمثلة التي وردت عند طبل أنه توسع كثيراً في عد كثير من الآيات في باب التفات العدد، ووصل ذلك إلى أنه جعل هناك التفات عدد في قوله تعالى: " وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم

شيئا " (النجم/ 26)، فجعل في الآية انتقالا من المفرد إلى الجمع، ويمكن أن نرى علائم التسرع بادية هنا، فـ(كم) الخبرية كما هو معلوم من بدائه أهل اللغة والنحو تعني (كثير) (انظر: ابن هشام، مغني اللبيب، ج1 ص 183 وما بعدها) وإذا كانت كم الخبرية بمعنى كثير فكيف يكون هناك انتقال من مفرد إلى جمع؟

(24) انظر على سبيل المثال: قوله تعالى: " كلا سيكْفُرون بعبادتهم ويكُونُون عليهم ضدا ".(مريم /82)، وقوله تعالى:" وحسن أُولَئِك رفيقًا" (النساء / 69)، وقوله تعالى: "فَإِنهم عدو لِي إِلا رب الْعالَمين " (الشعراء/ 77)، وقوله تعالى: " هلْ أَتَاك حديثُ ضيف إِبراهيم الْمكْرمين" (الذاريات /24).

(25) انظر: ابن منظور، لسان العرب، عدو، طفل، ظهر.

(26) انظر: طبل، أسلوب الالتفات، ص 114. وأسامة البحيري، تحولات البنية، ص339، وإبراهيم علان، البديع في القرآن، ص245.

(27) انظر: طبل، أسلوب الالتفات،ص 122،121.

(28) المرجع نفسه، ص238.

(29) ابن المنير، أحمد، الانتصاف، على هامش الكشاف، دار المعرفة، بيروت، ج2 ص 436.

(30) انظر: طبل، أسلوب الالتفات ص 237.

(31) انظر: المرجع نفسه ص234.

(32) انظر: الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر بيروت، 1984، ج11ص156،153.

(33) انظر: أسامة البحيري، تحولات البنية، ص331.

(34) انظر: حسن طبل، أسلوب الالتفات، ص 121، 122.

(35) انظر: المرجع نفسه،ص237.

(36) انظر: المرجع نفسه، ص 238.

(37) انظر: الطبري، جامع البيان، ج21ص53. والبيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج 4ص343. والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 14ص69. والشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج 4ص232، وابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، ج6ص312. والآلوسي، روح المعاني، ج 21ص61.

(38) انظر:أسامة البحيري، تحولات البنية، ص 333.

(39) انظر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن 1: 192،191. وانظر البيضاوي، أنوار التنزيل ج1: 153، 154. وانظر النسفي، تفسير النسفي ج1: 15، 16.

(40) انظر: حسن طبل، أسلوب الالتفات، ص239.

(41) انظر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 11 ص268 وج 15 ص33. والسيوطي، ج5 ص628. والشوكاني، فتح القدير ج4 ص 370.

(42) انظر: أسامة البحيري، تحولات البنية، ص334.

(43) انظر: مكي بن أبي طالب، مشكل إعراب القرآن، ج2ص552.

(44) انظر حسن طبل، أسلوب الالتفات، ص109. وإبراهيم علان، ص 244.

(45) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج1ص191، 192. والبيضاوي، أنوار التنزيل، ج1ص153، 154. والنسفي،ج 1ص15، 16.

(46) انظر قوله تعالى: " قُلْ أَرأَيتُم إِن أَخَذَ الله سمعكُم وأَبصاركُم وخَتَم علَى قُلُوبِكُم" (الأنعام /46). وقوله تعالى: "قُلْ من يرزقُكُم من السماء والْأَرضِ أَمن يملك السمع والْأَبصار " (يونس /31). وقوله تعالى: " وجعلَ لَكُم السمع والْأَبصار والْأَفْئِدةَ لَعلكُم تَشْكُرون " (النحل/ 78). وقوله تعالى:" أُولَئِك الذين طَبع الله علَى قُلُوبِهِم وسمعهِم وأَبصارِهم" (النحل/ 108). وقوله تعالى:" وهو الذي أَنشَأَ لَكُم السمع والْأَبصار والْأَفْئِدةَ" (المؤمنون/ 78). وقوله تعالى: " وجعلَ لَكُم السمع والْأَبصار والْأَفْئِدةَ لَعلكُم تَشْكُرون" (السجدة/9). وقوله تعالى: " شَهِد علَيهِم سمعهم وأَبصارهم.. " (فصلت/ 20). وقوله تعالى: ".. أَن يشْهد علَيكُم سمعكُم ولَا أَبصاركُم.. " (فصلت/ 22). وقوله تعالى: " وجعلْنَا لَهم سمعا وأَبصارا وأَفْئِدةً.. " (الأحقاف/ 26). وقوله تعالى: " قُلْ هو الذي أَنشَأَكُم وجعلَ لَكُم السمع والْأَبصار والْأَفْئِدةَ " (الملك/ 23).

(47) وانظر أيضاً: البقرة/257، والرعد/ 16، وإبراهيم/ 1 و5، والأحزاب/ 43، وفاطر/ 20، والحديد/ 9، والطلاق/ 11.

(48) الصور الست هي: من المفرد إلى المثنى، ومن المفرد إلى الجمع، ومن المثنى إلى المفرد، ومن المثنى إلى الجمع، ومن الجمع إلى المفرد، ومن الجمع إلى المثنى.

(49) يلاحظ عند النظر في الآيات التي تضمنت فردية الأجر " أجره " أن الفعل الذي تم بسببه إيتاء الأجر هو فعل فردي، انظر: النساء 100، العنكبوت 27، الشورى 40. وفي الآيات التي جاء فيها إيتاء الأجر جماعيا " أجرهم " يلاحظ أن مسألة التفاوت في الأجر قضية لا يستدعي السياق حضورها وبروزها، انظر: البقرة 277، آل عمران 199، النحل 97،96.

(50) فقد كان نزول المطر مرتبطا في أذهان بعض العرب بالكواكب والأنواء. انظر: مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، حديث رقم 125، ج1ص84،83.

(51) الزمخشري، الكشاف، ج 1ص 274. وانظر البحيري، تحولات البنية، ص 338.

(52) انظر البيضاوي، أنوار التنزيل، ج3 ص 155. والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج1 ص373. والآلوسي، روح المعاني، ج10 ص 128، وحسن طبل، أسلوب الالتفات ص 117. وأسامة البحيري، تحولات البنية ص 335. وإبراهيم علان، البديع في القرآن ص 245.

(53) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ج1 ص30، وحسن طبل، أسلوب الالتفات ص 118.

(54) انظر: إبراهيم علان، البديع في القرآن ص 245.

(55) انظر: حسن طبل، أسلوب الالتفات، ص 119، 121.

(56) انظر:المرجع نفسه، ص123.

(57) انظر: طبل، أسلوب الالتفات، ص 233. وأسامة البحيري – تحولات البنية،ص 338. وإبراهيم علان، البديع في القرآن ص245.

المصادر والمراجـع

ابن الأثير، ضياء الدين، الجامع الكبير في صناعة المنظوم والمنثور، تحقيق مصطفى جواد وجميل سعيد، بغداد.

ابن الأثير، ضياء الدين، المثل السائر، المطبعة البهية، 1312هـ.

ابن البناء المراكشي، الروض المريع في صناعة البديع، تحقيق رضوان بنشقرون، 1985، الرباط.

ابن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، 1956، دار الكتب المصري، القاهرة.

ابن الجوزي، زاد الميسر في علم التفسير، ط3، المكتب الإسلامي، بيروت.

ابن عربشاه، عصام الدين الحنفي، الأطول (شرح تلخيص مفتاح العلوم)، تحقيق عبد الحميد هنداوي، 2001، دار الكتب العلمية، بيروت.

ابن فارس، أبو الحسين أحمد، الصاحبي في فقه اللغة، تحقيق السيد أحمد صقر، 1977، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة.

ابن قتيبة الدينوري، تأويل مشكل القرآن، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.

ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت.

ابن المنير، أحمد، الانتصاف- على هامش الكشاف للزمخشري- دار المعرفة، بيروت.

ابن وهب، إسحاق بن إبراهيم، البرهان في وجوه البيان، تحقيق أحمد مطلوب، بغداد.

أبو عبيدة، معمر بن المثنى، مجاز القرآن، تحقيق فؤاد سزكين، 1962، مكتبة الخانجي، القاهرة.

أبو العدوس، يوسف، 1999، البلاغة والأسلوبية، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان.

أبو علي، محمد بركات وآخرون، 1997، علم البلاغة، منشورات جامعة القدس المفتوحة.

الأسمر، راجي، 1999، علوم البلاغة، دار الجيل، بيروت.

البحيري، أسامة، 2000، تحولات البنية في البلاغة العربية، دار الحضارة للطبع والنشر، طنطا.

البدري، علي، 1984، بحوث المطابقة لمقتضى الحال، ط2، القاهرة.

البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع، بيروت.

الدمنهوري، أحمد، حلية المصون بشرح الجوهر المكنون، (على هامش كتاب جلال الدين السيوطي، عقود الجمان في علم البيان) مطبعة دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.

الزركشي، بدر الدين، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، 1957، مكتبة دار التراث، القاهرة.

الزمخشري، محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق التنزيل، دار المعرفة، بيروت.

زموط، عبد الستار حسين، 1992، من سمات التراكيب، مطبعة الحسين الإسلامية، القاهرة.

السبكي، عروس الأفراح، دار السرور، بيروت.

السيوطي، جلال الدين، الاتقان في علوم القرآن، المكتبة الثقافية، بيروت.

شرف، حفني محمد، 1970، التصوير البياني، مكتبة الشباب، القاهرة.

الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدارية من علم التفسير، دار الفكر، بيروت.

الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر، بيروت، 1984.

طبل، حسن، 1990، أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، القاهرة.

عبد المطلب، محمد، 1997، البلاغة العربية قراءة القرآنية، مكتبة لبنان، بيروت.

عتيق، عبد العزيز، علم المعاني- البيان- البديع، دار النهضة، بيروت.

علان، إبراهيم محمود، 2002، البديع في القرآن، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة.

العلوي، يحيى بن حمزة، 1983، الطراز، دار الكتب العلمية، بيروت.

الفيل، توفيق، بلاغة التراكيب (دراسة في علم المعاني)، مكتبة الآداب القاهرة.

القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1967.

قليقلة، عبده عبد العزيز، 1987، البلاغة الاصطلاحية، دار الفكر العربي، القاهرة.

محمود، هاشم محمد، 1986، الالتفات في حاشية الشهاب الخفاجي،

مطبعة الأمانة، القاهرة

المراغي، محمد أحمد حسن، 1999، علم البديع، دار النهضة، بيروت.

مسلم، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة الإسلامية، استانبول.

مطلوب، أحمد، 1983، معجم المصطلحات البلاغة، المجمع العلمي العراقي، بغداد.

المفتي، الحسن بن عثمان، خلاصة المعاني، تحقيق عبد القادر حسين، 1993، دار الاعتصام، القاهرة.

الهاشمي، أحمد، جواهر البلاغة، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

Pronominal Shift: Evidence from the Holy Quran

Nazeeh M. E'lawi and Ayman M. Al-Ahmad *

ABSTRACT

This paper deals with (Eltifaat aladad) used in the Qoran, atype of (eltifaat) tending to receive little attention among scholars. As a starting point, the paper examines a number of views that made this type of (eltifaat) belong to the process of (eltifaat) as well as the reasons behind considering it as (eltifaat) of number in the Qoran. The paper finds that, First, a lot of the examples do not belong to the Qoranic (eltifaat) of number and that second, they are mostly used in contexts that describe (Allah) and in two ways: (1) From singular to plural, which tends to glorify (Allah), and (2) from plural to singular, which stresses that he is the one and only. In addition, in other contexts this type of (eltifaat) tends to convey other meanings, such as generalization, specification and unification in one single entity .

Keywords: Qoran, Eltifaat aladad, Number, Singular, Plural

---

* Department of Pure Sciences, Prince Abdullah Bin Ghazi School for Information Technology, Al-Balqa Applied University, Al-Salt, Jordan; and Department of Arabic Language and Literature, Faculty of Arts, Irbid National University, Irbid, Jordan. Received on 26/3/2006 and Accepted for Publication on 8/10/2006.